

الفضل الثالث

فلسفة الدعاية السوفيتية

oboeikandi.com

## فلسفة الدعاية السوفيتية

يبنى السوفيت صرح دعائهم الخارجية الموجهة ودعائهم الداخلية المضادة في مواجهة العالم الرأسمالي على أساس نظرة فلسفية محددة إلى الأوضاع العالمية مستمدة من العقيدة الماركسية اللينينية . وذلك فإن من الصعب جداً إن لم يكن من البلاءة محاولة التفرقة بين الدعاية السوفيتية والسدعوة أو التعليم المذهبي .

وإذا كان الفكر الماركسي يدور أساساً حول حتمية الصراع الطبقي فمن الطبيعي أن يربط دعائهم بين الصراع الطبقي في المجتمع والصراع على المستوى العالمي : فانتصار أو انكسار أى من الطبقتين (البرجوازية أو البروليتاريا) في وطنها - له في رأيهم - نتائج المباشرة على البلدان الأخرى ذلك أن كلاً من الطبقتين لا تتصرف كقوة داخلية فقط ولكن كقوة دولية أيضاً .

وبرغم أن ساسة الغرب ودعائه لا يمكنهم تجاهل الدور الواضح للصراع الأيديولوجي الأساسى في السياسة الخارجية وارتباط هذا الصراع العميق بالصراع الطبقي داخل النظام الرأسمالى نفسه إلا أنهم يقفون بشدة ضد محاولة السوفيت الترويج لفكرة تدويل الصراع الطبقي لأن شيوع هذه الفكرة وتبنى الجماهير لها لا يعنى في النهاية سوى اهتزاز النظام الرأسمالى من أساسه .

وهذا - في حقيقة الأمر - السبب الذى يحدو عادة برجال السياسة والإعلام الغربيين إلى تفسير المسائل المتعلقة بالصراع الأيديولوجى سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية خارج النطاق الأيديولوجى وتخرج فكرة الصراع الطبقي حتى لا يجذبوا انتباه الكتل الشعبية إلى مثل هذا التفسير . ولذلك فإنهم يلجأون عادة إلى إحلال مفهوم «الرأى العام» محل المفهوم الأيديولوجى .

فالرأى العام يريد كذا وكذا أو الرأى العام يرفض كذا وكذا .

وبرغم أن السوفيت لا ينكرون أهمية الرأى العام فى النظرية السياسية إلا أنهم يرون أن تحديد الرأى العام بمواقف واقعية ، تنبع عن سلسلة من المسببات كتأثير ظروف الحياة على الطبقات والجماعات المختلفة والتأثيرات الأيديولوجية والعوامل الاجتماعية السيكولوجية التى تؤثر فيها شئ . وتزيد معناه فى ضوء تلك الظاهرة الوهمية المراوغة - فى اعتقادهم - التى يسميها كتاب الغرب تجاوزاً بالرأى العام ويريدون لها أن تحتل مكان الوعى الطبقي والأيديولوجى شئ آخر .

ذلك أن المنظرين السوفيت يعتقدون أن استخدام لفظ الرأى العام بواسطة بعض السياسيين وبعض المنظرين فى العالم الرأسمالى كثيراً ما يصل إلى حد الابتذال السياسى الخالى من أى معنى حقيقى فهو عادة ما يستخدم لتحقيق أهداف نفسية خالصة كتبرير بعض الأفكار أو الإجراءات أو المطالب أو رفضها ، ويضربون مثالا على ذلك إطلاق القول بأن الرأى العام الغربى - على بكرة أبيه - معاد للسوفيت وأن الرأى العام يؤيد السياسة الاستعمارية العدوانية .

الخلاصة أن السوفيت يرون أن الصراع الأيديولوجى جزء لا يتجزأ من الصراع الطبقي وأنه من خلال هذا الصراع تصبح كل طبقة واعية بنفسها كطبقة مستقلة فى المجتمع لما أهدافها ومصالحها واتجاهاتها بالنسبة للقضايا السياسية والاقتصادية .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الأفكار أو الصراع الأيديولوجى يلعب دوراً أساسياً فى تحديد مهمة أساسية للسياسة ، هى كسب تأييد الجماهير . فبرغم أن الجماهير تدفع إلى الحركة أو العمل تحت التأثير الموضوعى المتصل اتصالاً مباشراً بظروف حياتها فإن الأفكار والصراع الأيديولوجى يكونان عاملاً حيويًا فى هذه العملية الموضوعية ، ذلك أن الفكرة أو النظرية تتحول إلى قوة هادية بمجرد أن تستحوذ على عقول الجماهير .

وهذا يوضح التصور السوفيتى لطبيعة العلاقات الأيديولوجية، سواء داخل المجتمع أو على صعيد المحيط الدولى ، ففي الصراع الأيديولوجى يكون الهدف الأساسى لأى طبقة وضع أكبر عدد ممكن من الناس تحت تأثير أفكارها وانتزاعهم بعيداً عن التأثير الروحى للطبقة المعادية . ويبدأ هذا العمل بالضرورة بالغزو الأيديولوجى للكتل الشعبية ، داخل ذات الطبقة كى تتحد الطبقة فى صراعها لتحقيق مصالحها وأهدافها .

والطبقة تتكون من عدة ألوف وأحياناً ملايين من الناس المنتشرين فى طول البلاد وعرضها ممن يعملون فى مجالات وأنشطة مختلفة وهم فى أحيان كثيرة ينقصهم الوعى بأحوالهم ومصالحهم المشتركة ويصدق هذا بصفة خاصة بالنسبة للطبقة التى ما زالت تخرب فى سبيل الاستحواذ على السلطة، فالنسبة لمثل هذه الطبقة تصبح سيادة أيديولوجية مشتركة بمثابة العامل التنظيمى الوحيد لتجميع قواها وتوجيهها باعتبارها الوسيلة التى تسبق كافة الوسائل بما فى ذلك الوحدة السياسية . فالمرحلة الحاسمة فى الصراع من أجل السلطة سواء بواسطة البرجوازية أو البروليتاريا - تبدأ على وجه اليقين بالوحدة الأيديولوجية عن طريق الدعاية داخل الطبقة ، وفى نفس الوقت تستخدم الدعاية الأيديولوجية بواسطة الطبقة لتحطيم الوحدة الروحية للطبقة المعادية ، كى تضمن لنفسها أعمق تغلغل ممكن فى صفوفها .

ومن الطبيعى فى هذا المقام أن تكون إمكانيات الطبقة الناهضة محدودة ، إذ أن عليها أن تتصارع مع عدو واع تماماً بأهدافه ومصالحه ومنظم تماماً للدفاع عن هذه الأهداف والمصالح .

وهنا تنحصر المهمة فى التأثير الفردى على عناصر من الطبقة الأخرى قادرة على الارتفاع فوق مستوى مصالح الطبقة ، وبمثل هذه العناصر تكسب عادة من الجحانيين - من جانب الثورة وجانب الطبقة القديمة .

والمناذج على ذلك كثيرة ، وهى بطبيعة الحال تعتبر حالات استثنائية بالنسبة لقاعدة الصراع الطبقي .

والأمر يختلف بالنسبة للتأثير الأيديولوجى الذى تمارسه الطبقة الحاكمة على الطبقة المعارضة لها . فإمكانيات إحداث مثل هذا التأثير كبيرة وبالجهود لضمان مثل هذا التأثير يشمل جانباً كبيراً من اهتمامات الصراع الأيديولوجى ، ذلك أن أفكار الطبقة الحاكمة هى التى تسود عادة فى المجتمع .

وأخيراً فإن من أهداف الدعاية الأيديولوجية - فى رأى السوفيت - بالإضافة إلى ما تقدم - كسب تأييد الجماهير فى الطبقات الوسيطة ، التى يتوقف نتيجة الصراع إلى حد كبير على تأييدها كالثقاة والبرجوازية الصغيرة من سكان المدن والموظفين والمثقفين إلخ .

هذه خلاصة وجهة النظر السوفيتية بالنسبة لفلسفة الدعاية السياسية المعاصرة وأهدافها الأيديولوجية التى تقوم عليها وتروج لها<sup>(١)</sup> . وننتقل الآن لمتابعة أساليب الدعاية السوفيتية لمواجهة الغزو الإعلامى الخارجى أو التخريب الأيديولوجى عن طريق ترسيخ العقيدة الماركسية اللينينية .

#### استراتيجية الدعاية السوفيتية الداخلية :

الدعاية فى الاتحاد السوفيتى يديرها الحزب على ثلاثة مستويات مختلفة ، وفى كل مستوى يتم تطبيق أساليب متميزة للتعليم . والجماعات الثلاث التى يتم بها الحزب بالدرجة الأولى هى :

- ١ - المثقفون .
- ٢ - أعضاء الحزب العاديون .
- ٣ - الكوادر ، أو المسئولون فى الحزب والحكومة .

Foster, W: "October Revolution and the United States of America" (١)

Moscow 1958, p35.

## ١ - المثقفون : ويقصد بهم المهنيون الذين يعملون في كل المجالات الرئيسية للحياة القومية :

مثل : المحامون والأطباء والمهندسون والاقتصاديون والمدرسون .. إلخ ، ويتلقى هؤلاء تعليماً متقدماً في المدارس العليا . ويقول ستاين « هناك فرع من فروع العلوم على كل البولشفيك أن يعرفوه . وذلك هو علم الماركسية اللينينية في المجتمع » . ينطبق هذا على المخصصين في الطب والكيميائيين كما ينطبق على علماء الاقتصاد وعلماء السياسة ، وعلى أعضاء الحزب وغير الأعضاء في الحزب . ولهذا يجب أن توفر كل مؤسسات التعليم العالي في الاتحاد السوفيتي حداً أدنى من التعليم أساسه برنامج دراسي في تاريخ الحزب . وبرنامج دراسي آخر عام عن أسس الماركسية اللينينية « يعتبر من المستلزمات التي يجب أن يحصل عليها الطلاب في جميع أنواع الكليات ، أما في الجامعات والمعاهد التي تضم كليات للتاريخ والفلسفة أو الأدب فيدرس الطلاب كلهم برنامجاً دراسياً عن المادية الجدلية والتاريخية . والرجال الذين يدرسون تلك البرامج يتم اختيارهم بالتشاور بين إدارة الدعاية والتحرريك والمسئولين عن التعاميم العالي ويتم التدريب في المدارس العليا للماركسية اللينينية التي تديرها اللجنة المركزية للحزب .

والتثقيف المذهبي الماركسي الموجه للمثقفين لا ينتهي بانتهاء مرحلة التعليم العالي فن آن لآخر يقوم الحزب بإحدى حملاته الدورية للتدريب الأيديولوجي ، فيدخل عدد كبير من المثقفين في مدارس خاصة مثل المعاهد المسائية للماركسية اللينينية التي تطورت بسرعة كبيرة منذ نهاية الحرب الأخيرة . وقبل الحرب كان هناك أربعون مدرسة من هذا النوع ولكن في سبتمبر سنة ١٩٤٨ كان هناك ١٨٨ مدرسة وصل عدد الطلاب فيها إلى ما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ طالب هاته « الجامعات المسائية » موجودة في المدن الرئيسية ، وتقدم دورات دراسية مدتها سنتان يحصل بعدها الطالب على شهادة . وعلى الطالب أن يدرس من عشرين إلى أربع وعشرين ساعة في الشهر . وبرنامج الدراسة يتضمن قسماً

تاريخياً وقسماً فلسفياً وقسماً اقتصادياً . وأغلب الطلبة من المثقفين والمهندسين والفنيين والعمال المتعلمين والمدرسين والفنانين . الخ . والحضور اختياري .

وهناك تأكيد كبير في التثقيف المذهبي للخريجين من المثقفين على نظام المحاضرات العامة التي تسعى لجعل تلك الجماعة على علم باتجاهات تفكير الحزب في الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجارية . ولتحقيق هذا الهدف ينشئ الحزب مكاتب خاصة لإعطاء محاضرات ، ويستخدم مع المنظمات الحكومية المتصلة . أساتذة الجامعة البارزين . وفي أحوال كثيرة يستخدم أيضاً المسؤولين الذين يتولون مناصب كبيرة في الحزب وذلك لإلقاء محاضرات عامة ، ومن الجدير بالإشارة أنه بالرغم من أن الجمهور يدفع رسم دخول يسيط لحضور هذه المحاضرات إلا أن عدداً كبيراً يحضرها . ويتم إنشاء تلك المحاضرات أساساً في المراكز الرئيسية مثل موسكو وكيف ، حيث يتركز غالبية المثقفين وحضورها مفتوح للجماهير بشكل عام .

وأخيراً يجب أن نشير إلى أن الصحف اليومية تهتم بإشباع « الاحتياجات » الأيديولوجية لقراءها الذين ينتمون للطبقة المثقفة ، وتقع على الجرائد المهمة الفنية والمتخصصة مسؤولة كبيرة في هذا الشأن .

والجدير بالذكر أن الهدف من ذلك التثقيف المذهبي أساساً هو منع تطور أيديولوجية مستقلة قد تشكل تهديداً للنظام بين فئات المثقفين نتيجة لنقص معارفهم أو تعرضهم للتخريب الأيديولوجي .

## ٢ - الأعضاء العاديين للحزب :

المستوى الأساسي الثاني الذي يوجه إليه الحزب جهوده الدعائية هم الأعضاء العاديين في الحزب . فمن الواجبات الأولى على كل عضو أن يعمل بدون كلل لإجادة مبادئ الماركسية اللينينية . وقد زاد من تعقيد مهمة توفير التثقيف المذهبي الضروري ، الزيادة الهائلة في عضوية الحزب التي ارتفعت من أربعة ملايين عضو قبل الحرب إلى ٦٣٠٠,٠٠٠ بعد الحرب بسبب قبول أعضاء جدد بدل الذين فقدوا في الحرب . ففي سنة ١٩٤٦ كان ثلثا الأعضاء في

الحزب يتكثرون من أفراد التحقوا به خلال سنوات الحرب . وتلقوا تهيئةً مذهبياً سطحياً خلال الحرب . ولواجهة ذلك الموقف ، طبق الحزب إجراءات خاصة لإعادة تنظيم وتقوية نظام التعليم والتدريب بالنسبة لأعضائه الجدد ، وذلك لتحسين خلفيتهم العلمية بشكل عام . ويوجد ثلاثة مستويات للتدريب بالنسبة للمرشح والعضو العادي . فيتأق الفرد تدريباً أساسياً في المدرسة السياسية أو مدرسة الحزب لتعليم الشروعى يستغرق تسعة أشهر وينطاب حضور الطالب حوالى ساعة ونصف أسبوعياً حيث يدرس ثلاث ماضعات أساسية هى :

- ١ - البناء الاجتماعى وبناء الدولة فى الاتحاد السوفيتى بما فى ذلك الدستور .
- ٢ - مشاكل خطة السنوات الخمس .
- ٣ - تعاليم الحزب .

ويقوم بالتعليم الدعاة الذين يتم إرسالهم من تخطت المدينة والمنطقة وقادة الحزب المؤهلون من المثقفين .

وبالرغم من هذا المجهود المنصب على التعليم المنتظم ، يثابر الحزب على تأكيد أهمية الدراسة الذاتية . أو الدراسة الفردية للأعمال الكلاسيكية للينين وستالين باعتبارها أفضل وأهم شكل لتثقيف السياسى المذهبى . لذلك يشجع الحزب خريجى الدوائر الدراسية وغيرهم من الأعضاء المؤهلين على القيام بمثل تلك الدراسة الفردية . وفقاً للبرنامج الذى وضعته إدارة الدعاية والتحرك لخدمة المركزية .

ولعلونة أولئك الأعضاء الذين يقومون بالدراسة الذاتية . يتم طبع أعداد هائلة من أعمال ماركس وإنجلز ولينين وستالين . مع تعاليمات وتفسيرات . وتباع بأثمان زهيدة ، وبالإضافة إلى ذلك يوجد بالصحف المركزية والمحلية مقالات أو أعمدة خاصة يتم فيها مناقشة المادة المخصصة لمعاونة أولئك الذين يقومون بدراسة الماركسية وحدهم . والهدف من ذلك تسهيل التعليم الأيديولوجى لأعضاء الحزب . وتسهم صحف الحزب العادية بشكل أساسى

في هذا المجال . ويوجد أيضاً مكاتب للحزب أو غرف للاستشارة تعمل كمكاتب متخصصة للأعضاء ويوجد فيها دعاة من المفروض أن يعاونوا الدارسين .

ويستهدف هذا التثقيف المذهبي الأيديولوجي الذي يلتزمه الحزب لأعضائه العاديين إعدادهم إعداداً كافياً لكي يعملوا كمحركين بين السكان بشكل عام ، فيتممون بتنفيذ قرارات الحزب وتفسيرها للناس ، ويعبثون الجماهير لتنفيذ تلك القرارات . ولا شك أن القيام بهذه المهمة يتطلب ، كشرط طبيعي ، حداً أدنى من التفهم للمذهب الماركسي . وذلك لتهيئة المحرك بشكل عام ولتكوينه من الإجابة على الأسئلة بدكاء . ولكن الأمر الأساسي الذي يحتاج إليه المحرك هو أن يدرك إدراكاً واعياً الأهداف التي تتركز عليها سياسة الحزب وقدراته .

والحقيقة أن النشاط الدعائي للحزب الموجه للأعضاء العاديين معد . إلى حد كبير ، بشكل يوفر هذه الخلفية الأساسية من المعلومات .

### ٢ - كوادرات الحزب :

المستوى الثالث لأوجه نشاط الحزب الدعائي ، والذي يعتبر من أهم مهام الحزب . يهتم بالتدريب الأيديولوجي لكوادرات الحزب ، أي المشغلين في الحزب والموظفين ومثلي الحزب الذين يعملون في الحكومة والصناعة والتجارة وفي نقابات العمال والتعاونيات والجيش وغير ذلك من المنظمات . ذلك أن الحزب يقود ويرجعه الاتحاد السوفييتي من خلال جهاز كبير معقد من منظمات الدولة والتنظيمات العامة التي يتم وضع الأعضاء في الأماكن الاستراتيجية فيها . وقد تم تطوير قنوات اتصال معقدة بين مراكز التخطيط واتخاذ القرارات في موسكو ، ومثلي الحزب في كل المناطق وجميع فروع الحياة القومية . ولكن أي جهاز بهذا الحجم عرضة لأن يخطئ ويسئ الفهم وأحياناً قد يكون عرضة للانحياز . ولا يستطيع . حتى وهو يعمل بشكل سلس ، أن يأخذ في الاعتبار كل حالة على حدة . ولذلك يهتم الحزب بأن يوفر لدى أولئك الموجودين في الأطراف فهماً كافياً للأهداف العامة وأساليب تفكير أولئك الموجودين في المركز ، وأن يحاطوا علماً

بالسياسات المعينة والقرارات . بحيث يكونوا قادرين على تكييف أنفسهم في الظروف الجديدة التي قد تنشأ وعلى اتخاذ القرارات بدون أن يتلقوا تعليمات مسبقة قبل الإقدام على أى عمل . وفي ضوء هذا يمكننا أن ندرك الأهمية الكبيرة لتعليقات ستالين لمؤتمر الحزب الثامن عشر عن موضوع الدعاية حيث يقول :

لايكنى أن ننظم بناء الحزب ، ونحسن الاتصال بين الوحدات العليا والسفلى ، ونختار بدقة الموظفين ونضعهم في أماكن مناسبة بل يجب بجانب كل هذا ، أن نعمل على التغلب على نواحي النقص في التدريب الماركسي اللينيني للكوادر . ذلك لأنهم إذا توقفوا عن فهم حقيقة قضيتنا وتحولوا إلى مجرد منفذين يقومون آلياً وبلا فهم بتنفيذ التعليمات الصادرة من أعلى - فلا بد من أن يعانى بلدنا ويعانى حزبنا ، « ويمكن أن نقول إنه كلما زادت المعرفة التي لدى الموظفين بالماركسية اللينينية في أى مجال من مجالات العمل في الدولة كان عملهم أكثر فاعلية ، . . . والعكس صحيح . ويمكن القول أنه إذا نجحت دعاية الحزب في تطوير كوادره بحيث يصبحون « ماركسيين لينينيين » - قادرين على حل المشكلات التي تدخل في توجيه الدولة بدون أن يقعوا في أخطاء خطيرة ، فسيصبح لدينا من الأسباب ما يبرر إيماننا بأن تسعة أعشار مشاكلنا قد تم حلها » .

يتضح مما تقدم أن الحزب لا يسعى من خلال التعليم الأيديولوجي لكوادره إلى مجرد إعداد ماركسيين متعمقين ، ولكنه يحاول أن يجعل منهم في الوقت نفسه مسئولين أكثر فاعلية بفضل ثقافتهم المذهبية وأكثر مقدرة على مقاومة الانحراف وألوان الدعايات المضادة<sup>(١)</sup> .

(١) لمزيد من المعلومات راجع مذكرات الدكتوروة جيهان رشى عن الإعلام في الدول الشيوعية

- كلية الإعلام جامعة القاهرة ١٩٧٢ .

### استراتيجية الدعاية البلشفية الدولية :

عندما جاء البلشفيون إلى الحكم كان هدفهم الأول إشعال ثورات الاشتراكية في جميع أنحاء العلم للقضاء على النظام الرأسمالي والتخفيف في الوقت نفسه من ضغط الثورة المضادة والتدخل الأجنبي ضد ثورتهم .

في ٤ مارس عام ١٩١٩ عقد مؤتمر اشتراكي دولي شامل في موسكو تقرر فيه إنشاء الدولية الثالثة أو بمعنى أصح الدولية الشيوعية المعروفة باسم الكومنترن كمرکز للقيادة العامة للثورة العالمية بهدف تجنيد الثوريين في جميع أنحاء العالم عن طريق الدعاية ضد الحكومات الرجعية وإعدادهم لتولي قيادة الثورة العالمية . ذلك أن البلاشفة كانوا يؤمنون إيماناً جازماً بأن ماتتبات الماركسية به من انهيار النظام الرأسمالي قد آن أوانه لأن الحرب الإمبريالية العالمية قد خلقت ظروف الأزمة الأخيرة للرأسمالية بحيث صارت أيامها معدودة بعد أن بلغت حدة تنقضاتها الداخلية ذروتها .

وكانت الإذاعة الموجهة من موسكو إلى العالم الخارجي تقوم بعبء ترويج الدعاية الصادرة عن الكومنترن بلغات العالم المختلفة على الموجات الطويلة وانقصيرة . أما الدعاية غير المباشرة فتقوم بها الأحزاب الشيوعية ، المحلية في بلدان العالم المختلفة .

ويتكون كل حزب من نواة من الأعضاء المختارين بعناية مهمتهم الأساسية ترسيخ الأفكار الماركسية في عقول الجماهير العالية وحشهم على العمل وفقاً لهذه الأفكار .

أما مهمتهم التالية فهي الدعاية بمعناها الضيق بمعنى نشر الصحف والكتب والكتيبات وتنظيم المواكب والاجتماعات والمحاضرات (١) .

فعندما أنشئ الكومنترن طوّل الشيوعيون في جميع البلاد بتكوين أحزاب

Lambert, Richard: "Propogand" - P. 131—[63,

(Thomas Nelson & sons, 1941)

شيوعية تقوم على أساس المركزية الديمقراطية بمعنى أن تنتخب الأجهزة الدنيا في الحزب أجهزته العليا وأن تكون قرارات الأجهزة العليا في الوقت نفسه ملزمة للأجهزة الدنيا إلزاماً مطلقاً و كلياً ، وأن تكون هناك سلطة مركزية قوية في الحزب لها السلطان النهائي الشامل على جميع الرفاق في الحزب في فترة ما بين المؤتمرات .

ولم تكن المركزية الديمقراطية هي الأساس الذي قامت عليه الأحزاب الشيوعية المختلفة فحسب بل كانت أيضاً الأساس الذي قامت عليه الدولية الشيوعية نفسها ( الكومنترن ) بحيث صارت الأحزاب الشيوعية في كل بلد مجرد فروع للكومنترن تفخذ تعليماته حتى فيما يتعلق بأدق تفاصيل شئوننا الداخلية .

ذلك أن الكومنترن قد أنشئ في حقيقة الأمر كجهاز لتوجيه الحركة الشيوعية الدولية على أساس إخضاع مصالح الحركة في كل بلد للمصالح العامة للثورة العالمية توجهاً لقيامها بين لحظة وأخرى واستيلاء الطبقة العاملة على القوة السياسية والاقتصادية وفرض دكتاتورية البروليتاريا فوراً لاستخدامها في تجريد البرجوازية ونقل وسائل الإنتاج إلى الدولة البروليتارية تحت الإدارة الاشتراكية للطبقة العاملة.

والخدير بالذكر أن الغرب قد اعتبر الكومنترن منذ الوهلة الأولى جهازاً دعائياً أنشأته وزارة الخارجية السوفيتية للدعاية للثورة العالمية دون تعقيدات دبلوماسية حيث إنه في شكله المعلن هيئة دولية لا تنتمي للحكومة السوفيتية .

وقد تكون الكومنترن في أول الأمر من الحزبين الشيوعيين اللذين كانا قائمين فعلاً وقت إنشائه وهما الحزب الروسي والحزب الألماني ومعهما بعض الجماعات الاشتراكية .

وعقد الكومنترن مؤتمره الثاني في شهرى يوليو وأغسطس ١٩٢٠ في بروجراد واشترك في الاجتماع مندوبو ٣٧ قطراً .

وفي هذا المؤتمر أقرت النقاط الواحدة والعشرون التي اعتبر قبولها بمخذاً فيها

شرطاً أولياً للانضمام إلى الكومنترن . وتضمنت تلك النقاط ضرورة قبولها مبدأ المركزية الديمقراطية أساساً . للحزب المنضم وأن يكون الحزب على استعداد للقيام بالأعمال المشروعة وغير المشروعة التي يتطلبها التعجيل بقيام الثورة وبخاصة الدعاية بين القوات المسلحة .

وهكذا تحددت بصفة حاسمة ونهائية صورة الدولية الجديدة وأيديولوجيتها . بل وأساليب عملها أيضاً<sup>(١)</sup> .

ولقد مر الكومنترن بعدة أطرار كانت في الواقع صدى لتطورات التي حدثت في الاتحاد السوفيتي وتغير الظروف .

ففي منتصف عام ١٩٢١ عقد المؤتمر الثالث للكومنترن واتجه الرأي فيه إلى العدول عن سياسة المقاطعة الكاملة لجميع الحركات العمالية غير الشيوعية في مختلف بلاد العالم ووضع أسلوب للتعاون مع الأحزاب الاشتراكية الأخرى في قسطنطينة محده . تمه العمال . وهو ما عرف بأسلوب « الجبهة المتحدة » وكان الدافع الرئيسي لهذا الاتجاه أن اهتمام الشيوعيين بتركيز كل جهودهم لإشعال الثورة العالمية قد صرفهم تماماً عن الاهتمام بالكفاح اليومي للعمال فيما يتصل بقضاياهم المعيشية مثل الأجور وشروط العمل . مما جعل العمال ينفضون من حولهم . ولذا اتجه الشيوعيون إلى العمل من داخل النقابات والمنظمات العمالية المختلفة . وقد أدت هذه السياسة فعلاً إلى زيادة كبيرة في العضوية من ناحية وإلى شد أزر الأجنحة اليسارية في الأحزاب الاشتراكية وجعلها أكثر صلابة من ناحية أخرى .

ولم يطرأ أي تغيير يذكر في السياسة العامة للكومنترن إلا عندما أعلن ستالين سياسته « الاشتراكية في بلد واحد » نتيجة لاقتناع الشيوعيين بأن الثورة العالمية قد يطول انتظارها وإن تقع بين لحظة وأخرى كما كانوا ينتظرون حيث بدا واضحاً أن الطبقات الرأسمالية الحاكمة قد أخذت تسترد أنفاسها في العالم الرأسمالي بعد أن تغلبت على مصاعب فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى .

وليس من شك أن إعلان شعار الاشتراكية في بلد واحد قد قلل إلى حد ما

(١) عبد الكريم أحمد : الكومنترن - الكاتب العدد ٥٨ - ١٩٦٦ .

من أهمية الكومنترن بوصفه الجهاز الذى قام أساساً لإشعال الثورة العالمية فوراً إذ تركز اهتمام الشيوعيين فى جميع البلاد على دعم الاشتراكية فى روسيا والمعاونة على تنميتها وصار واجبهم الأول الدفاع عن أول بلد فى العالم تحققت فيه الثورة البروليتارية إلى أن يحين وقت الأزمة الأخيرة المؤذنة بانهميار النظام الرأسمالى فى العالم كله . .

ولم يستعد الكومنترن مركزه السابق إلا فى أوائل الثلاثينيات عندما اضطرت ستالين إلى الالتجاء إليه مرة أخرى فى صراعه ضد هتلرية فى ألمانيا .

ففى هذه المرحلة خلق ظهور هتلرية فى ألمانيا موقفاً جديداً بالنسبة للأوضاع العالمية واعتبرها كثير من الاشتراكيين رأس الحرب فى الثورة المضادة والسلاح الأخير الذى تستخدمه الرأسمالية فى الدفاع عن نفسها وحل تناقضاتها والوقوف فى وجه القوى التقدمية الزاحفة .

ولذلك اتجهت جهود الكومنترن كلها ابتداء من سنة ١٩٣٣ إلى اتخاذ الإجراءات الدفاعية لإيقاف التوسع النازى . وتغيرت سياسة الشيوعية الدولية وانضم الاتحاد السوفيتى نفسه إلى عصابة الأمم التى كان الشيوعيون يطلقون عليها قبل ذلك اسم «عصابة اللصوص» ، فى مجهد يائس لتكتيل العناصر التقدمية ضد الخطر الفاشى الدايم . واتخذ الكومنترن سياسته الجديدة التى عرفت باسم سياسة الجبهة الشعبية التى تقوم على التعاون مع الاشتراكيين بل حتى مع اليسار البورجوازى التقدمى مع العدول عن العمل على إشعال الثورة العالمية .

وفى عام ١٩٣٦ جاءت إلى الحكم فى فرنسا أول حكومة جبهة شعبية بتأييد الشيوعيين ولكن دون اشتراكهم . وفى الوقت نفسه أنشأ هتلر جبهة مناهضة للكومنترن من ألمانيا وإيطاليا واليابان (دول المحور) واستمر الصراع بين الكتلتين إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية .

وفى مايو عام ١٩٤٣ أعلن حل الدولية الشيوعية وذلك بعد أن دخل الاتحاد السوفيتى الحرب إلى جانب الحلفاء الغربيين وقال ستالين إن هذا الحل أمر سليم جاء فى وقته لأنه يسهل تنظيم القيام بهجوم موحد من جانب الأمم

المحبة للحرية ضد العدو المشترك ، ويفضح ادعاءات خصوم الشيوعية داخل الحركة العمالية بأن الأحزاب الشيوعية في البلاد المختلفة تعمل بأوامر من الخارج وليس لمصالح شعوبها . وكان مما قاله ستالين أيضاً إن ذلك يسهل عمل المدافعين عن أوطانهم في جميع البلاد لتوحيد الشعوب المحبة للحرية في معسكر واحد ضد خطر السيطرة النازية على العالم . وبذلك يمهد السبيل لتنظيم إخاء الدول في المستقبل على أساس المساواة بينها .

وبعد الحرب العالمية الثانية كان مركز الأحزاب الشيوعية في معظم بلاد أوروبا قد تغير تماماً بعد أن تولت في أغلب هذه البلاد قيادة حركات المقاومة السرية ضد النازي أثناء الحرب . مما أهلها لاحتلال مراكز هامة في حكومات ما بعد الحرب التي عرفت باسم حكومات الجبهة الوطنية . . . .

وقد قامت نتيجة لهذه السياسة الديمقراطية الجديدة في شرق أوروبا التي اتخذت اتجاهاً جديداً في التطبيق الاشتراكي يقوم على مزيج من تأميم الصناعات الكبرى والسماح بقيام المشروعات الخاصة الصغيرة وتجارة التجزئة وملكية صغار الفلاحين كأساس ملائم لتعمير ماخربته الحرب وكفثرة انتقال إلى المجتمع الاشتراكي الكامل<sup>(١)</sup>

وعندما اشتدت الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشرقي أحست الدول الشيوعية بالحاجة إلى إنشاء منظمة شيوعية دولية جديدة لتنسيق كفاحها في الصراع الجديد فقررت في مؤتمر الأحزاب الشيوعية الذي عقد في وارسو عام ١٩٥٦ إنشاء مكتب الاستعلامات الشيوعي الذي عرف باسم الكومنفرورم وجعلت مقره في بلغراد ويضم ممثلين للأحزاب الشيوعية في الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية وفرنسا وإيطاليا إلا أنها عادت فألغت هذا المكتب عام ١٩٥٨ في محاولة منها لتخفيف حدة التوتر الدول والحرب الباردة ودعم حركة التعايش السلمي بين النظامين الاجتماعيين العالميين .

والأمر الذي لا شك فيه أن المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي قد بلور بصورة واضحة الأيديولوجية السياسية والدعائية السوفيتية الحالية في صراعها الكبير مع المعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، على أننا سنؤجل الحديث عن ذلك إلى الفصل التالي حين نتحدث عن الصراع السوفيتي الصيني الذي زادت قرارات هذا المؤتمر اشتعالاً وذلك للرابطة الوثيقة بين الظاهرتين .

...